يوحنا ذهبيّ الفَم
(توفي 407م)

الأب منصور المخلصي

1. أنطاكيا

كانت أنطاكيا المدينة الثالثة في الإمبراطورية الرومانية بعد روما والاسكندرية، وعاصمة إقليم الشرق المدني، وهي مشهورة بثقافتها اليونانية، مع الحفاظ على عادات وثنية، كما ذكر ذلك يوحنا ذهبيّ الفَم[1]، إذ تطرق إلى فساد الأخلاق في عاصمة سوريا، أو أشار إلى الخرافات الوثنية مع الاستمرار على ممارساتها. عرف يوحنا أيضًا الإنشقاقات في صفوف المسيحيين على أثر الآريوسية في القرن الرابع.

ولادته ونشأته : ولد يوحنا في أنطاكيا نحو سنة 340 من عائلة نبيلة، ودرس البلاغة والفلسفة اليونانية عند ليبانيوس الخطيب الوثني الشهير، الذي قال عن يوحنا : " لو لم يكن نصرانيًا لما خطفوه مني ". بعد وفاة أمّه الأرملة، ترك المدينة ليحيا حياةً نسكيّة لمدة ست سنوات، لكن أخيرًا غدا مريضًا وضعيفًا، فبدأ يحس ان دعوته في المدينة، ورجع عند الأسقف. تدريجيًا ترك مواقفه المنشودة من الحياة، كما يظهر من قوله : " خيرٌ للإنسان ان يكون أقل فضيلةً ويهدي غيره، من ان يسكن الجبال ويرى اخوته يهلكون ". قَبِل الرسامة الكهنوتية

(1) لقب يوناني (χρυσοστομος) أُطلق عليه بسبب عظمة بلاغته، وسجل أول مرة سنة 553 من قبل البابا فيجيليوس (ذهبيّ الفَم أو فم الذهب).

على يد فلافيانوس، أسقف انطاكيا، سنة 386، ومارس وظيفة الواعظ والخدمة الرعوية في الكنيسة الكبرى لمدة 12 سنة. انتشر اسمه في المشرق كله. إنه أهم واعظ عرفته الكنيسة اليونانية التي لقبته بـ " فم الذهب ". وصلنا عدد كبير من مواعظه، تناهز 700، وأكثريتها تفاسير الكتب المقدسة، أو ضد الهراطقة، أو " الخطب التعليمية " تحضيرًا للمرشّحين لقبول العماذ ليلة الفصح، أو في الأعياد والمناسبات.

الواعظ الرعوي : خلال هذه الفترة إشترك في مشاكل السكّان، مثل قضية التماثيل الإمبراطورية التي كسرت على يد الشعب، مع نتيجة غضب الإمبراطور وتهديد تدمير المدينة وذبح السكان. في ذلك الحين ذهب الأسقف فلافيانوس الشيخ إلى القسطنطينية لكي يرى حالة المدينة، وكان يوحنا يكرز للصوم الكبير ويحاول تسوية الأمور.

وكانت الحالة الاجتماعية سيئة، ويلاحظ يوحنا المرضى في الشوارع، ويذكر وجود قوائم بأسماء الفقراء والأجانب والسجناء والبُرص... لكن الأغنياء لا يهتمّون بهم ويبنون قصورًا ويشترون ملابسَ ثمينة، وفي الريف يستغلّون أصحاب الأراضي العمال البسطاء. ويقول يوحنا : " قبل أن تقدم ذهبًا لتزيّن الكنيسة، قدّم خبزًا للفقراء "، ومرارًا يدافع يوحنا عن العبيد الذين يملكهم الأغنياء ويجب عليهم ان يحترموهم، وبخاصّة ان يعلّموهم مهنة يستطيعون ممارستها عندما يحصلون على الحرية. كما أنه يأخذ موقفًا من الكبار الذين يحتقرون العَمَلَةَ الذين يشتغلون بأيديهم، كما فعل " ابن النجار ". بواسطة العمل يُشفى الانسان من كبرياء الخطيئة ويرجع إلى الله الخالق، لكن الغني الذي لا يعمل أو يفعل شيئًا يهلك نفسه، وحياته باطلة بدون معنى. فليس له الحق ان يحفظ الأموال لنفسه فقط. ويحارب يوحنا المجتمع الأناني الذي يعيش فيه كل واحد لنفسه : " هذا لي "... لأن الأموال كلها هبة من عند الله ومشتركة بين الكل.

كاتب المقالات : في مقالاته أيضًا يشجّع الشباب للاهتمام بالدروس المهمة، أو يدافع عن العذارى والشماسات، أو يدعو المتزوجين إلى علاقة الحب والاحترام المتبادل على مثال الحب بين المسيح والكنيسة. من ناحية كان يوبّخ المستمعين، ومن ناحية أخرى فهم الضعف الانساني، وكان يدعو الخاطئين حتى إلى حفلة عيد الفصح المجيد. في مقالة أخرى يقدم ارشادات للحصول على الحرية الداخلية. وعندما يقرر أقوال ابيكطط الفيلسوف الرواقي اليوناني (المتوفى نحو 130) " لا يستطيع ان يجرحك أحد، إلا انت بالذات "، يفسر ان الحصول على الحرية الداخلية يتحقق من خلال التحرر من الشهوات والأفكار الكاذبة عن الآخرين وعن النفس، ليرى واقع الحياة الحقيقية، التي في ممارسة التفاهم والصبر والمحبة، على مثال أيوب الرجل البار الذي خسر الكل، أو لعازر الفقير على باب الغني، أو يوسف الذي احتمل الحسد والسجن، لكن رغم تدمير حالتهم الخارجية لم تُهلك حريتهم الداخلية. هكذا أيضًا كان الأولاد الثلاثة في أتون النار يمدحون الله. لذا، يقول يوحنا، لا يستطيع أحد ان يدمّرك داخليًا، إلا انت بنفسك، من خلال تصوراتك الكاذبة. إذا أُصيب أحد بجرح، فالسبب يعود إلى نفسه، لا إلى الآخرين العديدين الذين يضايقونه. لأن الساهر المتحد بالمسيح، لا يجرّح نفسه، ويحتمل كل الضربات بقلب شريف وصريح[2].

2. أسقف القسطنطينية

الرسامة الأسقفية : وفي يوم من الأيام دُعي يوحنا إلى مقابلة المستشار، حاكم مدينة أنطاكيا، ولما ذهب إلى الملتقى وجد هناك عربة تنتظره

(2) من المقالات يمكننا ان نذكر اشهر مقالاته هي : " في الكهنوت " (390)، " ضد منتقدي الحياة الرهبانية 1-3 " (378-385)، " في البتولية والزواج "، " في المجد الباطل وتربية الاطفال "، وكتابه المعروف : " في الله الذي لا يدرك ".

ليصعدها مع المستشار، فترك أنطاكيا، غفلةً، بأمر الإمبراطور، ليحضر القسطنطينية من دون توقف بين المراحل ومن دون تردّد أو أمل في الرجوع. وعند وصوله العاصمة، لقي هناك بعض الأساقفة مجتمعين لانتخاب الخلف ومستعدّين ليرسموا يوحنا المرشّح المنتخَب. في بدء الأمر رفض ثيوفيلوس، أسقف الاسكندرية، لكن أجبَره الوزير الامبراطوري (أوتروبيوس) ليشترك في الرسامة ووضع اليد على يوحنا لتكريسه أسقفًا على القسطنطينية (398). منذئذ اصبح ثيوفيلوس عدوًا له، ومستعدًا لاستعمال أيّ وسيلة ليطرده من العاصمة ويُبعده عن المسؤولية[3].

(3) عدد من الأساقفة الآخرين أيضًا كانوا ضده : مثل ساويريوس الكابالي، أفلق البيري، لطيوخوس...

القديس يوحنا ذهبيّ الفَم

(فسيفساء من القرن الثاني عشر – بالرمو)

الاصلاح الكنسي : بعد تعيينه على كرسي العاصمة الأسقفي، إستمرّ يوحنا يتصرف ويتكلم كما فعل في انطاكيا، ويبذل جهوده لاصلاح الكنيسة. بسبب شدة موقفه، إجتذب يوحنا بعض المسيحيين المثاليين، وأكثرية الشعب، لكنه جعل أهل السلطة، وكثيرًا من الاكليروس والكبار، اعداءً له. بعدما جدّد الحياة في البيت الأسقفي نفسه، قام برحلة رعوية، وقصد إصلاح تصرفات الكهنة والرهبان، وطلب منهم ان يحيوا حياة لائقة بدرجتهم مع ترك اللذة والترف، وحاول تنظيمهم تحت سلطة القانون والإشراف الأسقفي.

الدين والسياسة : في بعض الاحيان اخذ يوحنا موقفًا كنسيًا سياسيًا ضد الحكومة، هكذا في قضية أوتروبيوس (سنة 399) الذي هرب إلى مذبح الكنيسة البطريركية، مستندًا إلى حق اللجوء. أو عندما باع بعض الأموال الكنسية، لكي يحمل القائد الغوطي الثوري على ترك المدينة من دون ان يسلبها (400). ثم أخذ موقفًا كنسيًا انجيليًا، في بعض القضايا غير الواضحة، مثل طرد الأساقفة " السيمونيين " من مناصبهم، بتعيين أساقفة أمناء في مكانهم، أو استقبال الرهبان المصريين (402) المضطهدين من قبل أسقفهم ثيوفيلوس. وفي كرازته إستعمل كلمات حادّة ضد الأغنياء وأهل البلاط، ليحترم كل انسان احترامًا مسيحيًا، ودعاهم إلى توزيع الأموال على الفقراء، وتحرير العبيد. كان الشعب يحبّه بسبب بساطته وصراحته، كما أنه اعتمد عليهم.

مجمع البلوط : لكن بتعاون الامبراطورة وأهل البلاط، حضر ثيوفيلوس وأتى إلى العاصمة مع 30 أسقفًا مصريًا ومجموعة من الهدايا، وعند وصوله إلى القسطنطينية، نزل في بيت خارج المدينة – مُلك الإمبراطورة – المسمى " بالبلوط " (السنديانة)، واجتذب اليه اعداء يوحنا كلّهم من الكنسيين والسياسيين. وحينما رفض يوحنا ان يحكم على ثيوفيلوس، اشتكى هو عليه ودعاه إلى " مجمع

البلوط " حيث حكم عليه بطرده من كرسيه البطريركي. ثم أكد الإمبراطور القرار (403)، تحت تأثير الإمبراطورة أودوكسية، ولما ترك يوحنا المدينة، كان الشعب ثائرًا، وما إن ابتعد مسيرة يوم واحد، حتى أرسلت أودوكسية نحوه مرسَلاً ليُرجع يوحنا، لانها قد اصيبت بكارثة شديدة، وحدث زلزال أرضي، كعقوبة من قِبل الله تعالى. إستقبلته أودوكسية بلطف، وألقى يوحنا خطبة تكريمية لها (بعد عودته).

النفي النهائي : عند رجوعه احتفلت المدينة كلها إحتفالاً عظيمًا، إذ زُينت بآلاف الأنوار والمصابيح، وهرب ثيوفيلوس وأصدقاؤه سريعًا من غضب الشعب. لكن بعد شهرين، وهي مدة غير طويلة، قصد رئيس البلدية إقامة تمثال فضّي للإمبراطورة مع ألعاب شعبية، وسببت هذه الضجّة إضطرابًا في الطقوس وحتى في كرازة يوحنا داخل الكنيسة، وبكّت يوحنا الناس على ذلك. لكن أعداءه اخبروا البلاط بانه كرز ضد أودوكسية. ثم في عيد يوحنا المعمذان، كرز يوحنا وطبّق النص الإنجيلي على نفسه قائلاً : " من جديد تغضب هيرودية ومن جديد تطلب رأس يوحنا... ".

ثم أمر الإمبراطور بعقد اجتماع ضد يوحنا، لكن ما زال الشعب يدافع عنه ويحضر مواعظه في عيد الفصح (404)، وبرغم منع الإمبراطور دخولَه الكنيسة البطريركية، وتركَه البيت الأسقفي، إجتمع الكهنة والشمامسة مع الموعوظين في الحمّامات العمومية لتتميم طقس العماذ هناك، لكن وسط الاحتفال دخل فريق من العسكريين الثراقيين، وضربوا وقتلوا كل من وقع تحت سيوفهم. " واختلط الدم بماء العماذ ". كما أرسل بعضًا ليقتل يوحنا، لكن لم ينجح في قتله. وأخيرًا أجبر الإمبراطور يوحنا على ترك المدينة والذهاب إلى المنفى. وحينما اجتمعت الجماهير في الكنيسة للدعاء، خرج يوحنا في هدوء من باب الكنيسة الخلفي، وهرب إلى الميناء، ومن السفينة رأى يوحنا احتراق الكنيسة بيد الشعب، " لكن من سيدافع عنهم الآن ؟ ".

الرسائل : ولقد كتب يوحنا إلى روما، طالبًا من البابا محكمة عادلة، لكن ثيوفيلوس أيضًا أرسل قرار مجمع البلوط إلى روما. أخيرًا فهم البابا القضية، وكتب إلى يوحنا وإلى شعب القسطنطينية ليشجعهم[4]، وأرسل وفدًا رومياً إلى الإمبراطور ليعقد اجتماعًا جديدًا. لكن في القسطنطينية حدث ان توفيت أودوكسية والأسقف الشيخ، وعين أسقفاً جديدًا الذي جعل الإمبراطور يرفض الطلب البابوي. فردًا على ذلك، انكرت روما الإشتراك الكنسي مع القسطنطينية والاسكندرية وأنطاكيا بشخوص أساقفتها.

بعد رحلته الصعبة عبر قبدوقية (نصة وقيصرية) وصل يوحنا إلى ارمينيا السفلى في قفقاسيا (كوكوسوس)، وبقي هناك لمدة ثلاث سنوات. في هذه الفترة كتب الرسائل إلى أصدقائه وبخاصّة إلى اولمبياس الأرملة[5] واستقبل الزائرين من انطاكيا. لكن برغم تردّي صحته الضعيفة، طلب أعداؤه طرده إلى مكان ابعد نحو البحر الأسود. وهكذا، في الطريق، وجد نفسه بلا قوة، وفي كومانا البنطية، قرب معبد للشهيد باسيليكوس، توفي يوحنا، بعد التناول الأخير، في 14 أيلول سنة 407، وكانت كلماته الأخيرة عند تسليم روحه : " المجد لله من أجل الكل ".

في سنة 438 أُعيدت جثته إلى القسطنطينية حيث دُفنت في كنيسة الرسل، واستقبل بقاياه الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني، ابن اركاديوس وأودوكسية، طالبًا الغفران من أجل والديه.

---

(4) حُفظت أكثر من 230 رسالة من المنفى، وبينها 17 رسالة إلى الأرملة الشماسة أولمبياس.

(5) لقد كانت من الشماسات الوفيّات التي قدّمت نفسها لخدمة الكنيسة بعد وفاة زوجها، وكتب غريغوريوس الذينزي شعرًا لاحتفال زواجها – وكانت بينها وبين يوحنا رباط صداقة عميقة، وبعد ترك يوحنا المدينة، قُبض عليها وطردت. ويتكلم يوحنا في رسالة أرسلها إليها عن نفسه من الناحية الإنسانية، وعن ظروفه وشعوره وصعوباته ويشجعها قائلاً : " لا تتركي الأمل – سنرى بعضنا البعض من جديد يومًا ما ".